

الإربعاء 09-01-2008

131-الأصل والصور!!

تمهيد

كيف تتشكل الشخصية؟

كيف تتكون الهوية؟

بداية من أي سن؟

هل الصورة التي نرسمها لهم أو التي نفرضها عليهم، أو التي نتمناها لهم: تمثلهم؟

أم أنها بداية لا مفر من مراجعتها؟

ثم ما هو الحد الفاصل بين صورة أطفالنا كما تبدو لنا؟ أو كما نريدها؟ أو كما نصنعها؟ وبين حقيقتهم كما خلقهم الله ليكونوا فيصيروا، إليهم، إليه؟

هل نحن نستعملهم لنسقط عليهم ما عجزنا أن نكونه؟

متى نعرف كيف نتفاعل معهم لعل وعسى: أن يكونوا فيصيروا؟

هل نحن نتعرف على أولادنا لنواكبهم إلى ما "هم"؟

أم أننا نشكلهم ليثبَّتونا كما "نحن"؟

نبدأ بعرض مقتطفات من حالة نبين من خلالها خطورة التركيز على الشكل على حساب الجوهر، والتعامل مع الخارج دون الداخل، والاقْتِصَار على النفخ في جزء على حساب الكل مهما بدا بديعاً فعلاً، حتى يطغى على الكيان فيلغيه وتفشل عملية تشكيل الذات تكاملاً.

النسب البشري

..... حالة شاب حالوا دون نموه (حتى توقف، فتسبخ، ونكص) نتيجة التركيز على صورته (شكله المليخ) على حساب حقيقته (مشروع تكوينه)، وقد احتد هذا التناقض في فترة المراهقة فكان ما كان. وسنعرض جانباً من شكواه.

ثم عينة من حوار معه أثناء الفحص الإكلينيكي.

موجز تقديمي

هو شاب وسيم فعلاً، (ليكن اسمه محمود) "أمور"، (بحسب تعبير ثلاث طبيبات على مدى سنتين) أصغر إخوته (المريض له سبعة

إخوة، خمسة منهم أشقاء، وكلهم وصلوا إلى تعليم متوسط، وأنهوه بنجاح، ويعملون). هو من قرية قريبة من القاهرة، عمره عشرون عاماً، مازال في السنة النهائية ثانوى صناعي، وكان يعمل بشكل متقطع سواء في مساعدة والده (فلاح). أو والدته التي تتاجر في الخضروات جائلة في الأسواق. بلا تاريخ أسرى للمرض النفسي. الأب رجل طيب مجتهد اجتماعي محبوب من الآخرين خارج المنزل، لكنه باهت نسبياً في المنزل، يجيب محمود كل طلباته تقريبا، والأم حانية شاطرة قريبة جدا من محمود، تفضله عن إخوته، وهي فرحة بجلوته، وتفخر بشكله منذ ولادته، وخاصة أنه "آخر العنقود".

جاء في شكوى محمود ما يلي

حاسس إن شكلي أوحش، مش عاوز أطلع شبه والدي، عايز شكل مستقل، عاوز أبقى حاجة لوحدي، زمان كنت وسيم بس مش دلوقتي، أصل اخواتي بيحطولي حفن في الأكل تخليني أبقى عندي كرش، واتخن، ويمشوني على مزاجهم. لما بابقى في الشارع باحس إن الناس بيضحكوا عليّ وبيقولوا العبيط ااه، والبلد كلها بتكرهني، وعايزين يفرحوا في عشان شكلي أحسن منهم، كنت عايز اهرب من البلد كلها... قلت لو هم (أهلي) مش راضيين يعترفوا ان هما السبب في اللي جرى لي: حاقتل نفسي. حاسس إن ذكي زيادة، وعندي معلومات، ومخى كبير وممكن أبقى عالم كبير بس لو أهلي ينتبهولي".

ومن شكوى الأم

"... هو أول ما التعب جاله كان يغسل إيديه كثير ويفضل يعيد ويزيد، ويقف قدام المرايه، ويص على نفسه بالساعات، ويحش الحمام، يكب على نفسه ميه كثير، بعد سنة ابتدا يتعب ويتخانق ويمشى ويسيب البيت وبيات في الجامع، وابتدا يتهم اخواته انهم عاملين له عمل عشان شكله يبقى وحش، ويشك في الجيران وأهل البلد، يقول إن كل الناس في الشارع عارفين حكايته وبيتكلموا عليه، ويضحكوا عليه.

عن ما آلت إليه الحالة

وصل الأمر بعد توقف العمل والانسحاب والعزلة إلى أنه كان يتبول ويتبرز دون تحكّم أثناء يقظته، وكان ذلك بمثابة علامة خطيرة على تدهور حالته، ولو أن هذا توقف بعد دخوله المستشفى العام (قسم النفسية).

وقد عولج بكل أنواع العلاج خلال أربع سنوات، وكانت استجابته ضعيفة، أو مؤقتة، فسرعان ما كانت حالته تنتكس المرة تلو الأخرى.

وقد شخصت الحالة تشخيصاً سيء السمعة، ومع ذلك كان المريض مستجيباً، وقريباً، فإمما لما جرى حوله بوعى حاد، ورغم وجود مسحة من طفولية طازجة، وإن كانت رخوة، وكان شكله هميلاً بالمقاييس العامة في مصر بالنسبة لما هو جمال الذكور: البشرة البيضاء، والشعر الناعم المائل إلى الحمرة، والملامح المتناسقة.. إلخ

تمت المقابلة مع الأستاذ (كاتب هذه السطور) بعد عرض تاريخ الحالة من طبيبة أصغر. نقتطف من المقابلة التي استغرقت أكثر من ساعتين، ما يلي:

د . يحيى

= الدكتورة قالتلى إنك ما بتتحسنشى، أو بتتحسن وتساء على طول.

محمد

- أيوه .

= إنت خدت كل العلاجات بلا استثناء، وما فيش فائدة .

- حضرتك يائس منى؟.

= بس يعنى....!

- يعنى ما فيش فائدة؟.

= ربنا موجود، ما حدش ييأس وربنا موجود.

- اخل إليه؟.

= ما اعرفشى، إنت بقى تشوف لنا حل وانا اساعدك فيه.

- ما اعرفشى .

= أنا حاعمك إليه ؟ إليه اللى عندى تانى؟ أضحك عليك واقولك عندى دوا جديد ما حصلشى؟

- وانا اعمل إليه؟ حاسس إن حضرتك زهقت منى.

= هوأ انا لحت أزهب؟ حتى لو زهقت: هوأ أنا زهقت منك، ولا من حاجة فيك؟ أنا مش من حقى أزهب من عيان، مابقاش دكتور.

- إليه الحاجة إالى زهقت حضرتك؟.

= إليه بقى حكاية شكلى شكلى شكلى دى؟.

- هى دى الحاجة اللى تعبانى.

= شكلك ماله؟

- ما هيا دى الحكاية .

= خلينا نبتدى بداية جديدة . شكلك حلو ولا وحش ؟

= كويس، لا حلو ولا وحش.

- لا يا شيخ !! إمال كل اللى احنا فيه ده إليه؟ تعالى نتفق يعنى إليه "شكل"، مثلا الدكتور همام، (أحد الأطباء المقيمين)، شكله حلو ولا وحش؟

- كويس .

= هو ظريف، إنما احنا بنقول شكله؟

- مش فاهم ؟

.....

= إسمع يا محمود: أنا متصور إن فيه "محمود"، وفيه "شكل محمود"، زى ما تكون انت استغنيت عن محمود وعمال تلف حوالين شكلك

-... يمكن ، بس مش انا السبب.

= عابزين نشوف كلمة "شكل" دى أولها إيه وآخرها إيه، أربع سنين عيا، وييجى عشر سنين تحضير للعباء، وادى احنا زى ما احنا.

- أهو دا اللى حصل (يضحك)

= إنت بتضحك على إيه؟ إنت مركّز على حكاية الشكل دى، ما عادشى عندك حاجة غيرها.

- هوا فيه إيه غيرها؟

= فيه محمود، هو انت "محمود" ولا "شكل محمود"؟

- مش عارف.

= إنت باين استغنيت عن محمود، أو يمكن نسيته، أو يمكن عمرك ما عرفته.

-هم اللى اهتموا بشكلى، وشى إيه، وعنى إيه، وشعرى إيه .

= يعنى إيه؟

-يعنى هم اهتمو بشكلى كده، و انا اتدبست فى شكلى، و نسيوا محمود.

= آه صحيح، إيه حكاية أمّور دى ؟

- أنا ما قلتش أمّور.

= الدكتورات عندنا هنا قالوا عليك قمور، إيه رأيك؟

- أنا ما ليش دعوة .

= إيه يعنى شاب عنده عشرين سنة يبقى أمور؟

-عند حضرتك حق .

= عرفت الحكاية؟ أصلها وفصلها؟

- بصراحة انا شكيت فى حاجة زى كده .

= الأمّور راج، الأمّور جه !!! يا فرحتى.

- أهو اللى حصل. هية الحكاية دى لها علاج؟ ولا طبيعية ؟

= يمكن طبيعية، بس ما توصلشى لدرجة إنك تتهرز على روحك، وانت صاحى زى اللى عنده أقل من سنة !

(يسكت وينظر فى الأرض)

= مش كده ولا إيه؟ يعنى إيه ما تتحكمشى فى ده؟ إنت بتكسل تروح دورة المية ولأ إيه؟

- يمكن كسل

= وانت عندك عشرين سنة؟ يكونشى عايز ترجع أيام الرضاعة الأولانية؟

-مش عارف.

= طب وبعدين؟

-وانا ذنى إيه؟

= الظاهر لازم نبتدى ما الأول.

-أول؟ أول إيه؟

= مانت راجع للأول بعمايك دى، بس الأول اللى احنا عايزينه نركز فيه على محمود بدال شكله

- إزاي؟.

= ما اعرفشى، الحكاية عايزة بداية بعيدة عن الشكل، عايزين محمود، زى أى حد ما يبقى هو مش شكله.

-بس الحكاية دى من صغرى.

= ما انا عارف، زى ما يكون حطوا شكلك مطرحة.

- كنت باقول لنفسى حاجة زى كده، حتى قبل ما تقابلنى حضرتك.

= مجد؟ يبقى احنا ماشيين معقول. طب عايزين نخلها، نعملها ازاي؟

-أنا باعمل اللى على، حضرتك نخلها.

= لا يا شيخ؟ كسل برضه؟ أذك دوا أغلى؟ ولأ نكرر العلاجات اللى ما نفعتش؟

-أعمل انا إيه، المطلوب منى إيه؟

= آدى احنا بندور على مفتاح.

- هوا احنا لسه ما امسكناش المفتاح، أهلى مش راضيين يعترفوا إن هما السبب فى اللى جوايا،

= إنت لما بتقول "اللى جوايا"، بتشاور على حاجة تانية، بتشاور على الوسوس والأفكار والمرض، مش على حكاية "الشكل".

- تقريبا
 = حتى لو كانوا هما السبب، إنت برضه لازم مشارك فى اللى جرى.
 - فى إيه؟
 = ما اعرفشى، إوعى تكون فاهم إنى عارف، أنا باحاول معاك، كل اللى عارفه ان الحكاية محتاجة وقت
 - يعنى أستنى قد إيه؟ ما انا بقالى أربع سنين.
 = أربعة عبا، وعشرة تحضير للعبا، نعمل إيه دلوقتى؟.
 -أنا باعمل اللى على.
 = حكاية "باعمل اللى على" أنا مصدقك، بس لا هى كفاية ولا هى نافعة، بس أنا مصدقك، أنت بتسرح شعرك ازاي؟(كان شعره مصفف ومجفف ولامع مثل الشباب الروش).
 - باشده .
 = إسمع يا محمود، حتى لو كانواهما اللى عملوك، إنت الظاهر استحلينها، لا انت قادر تتنازل عن شكلك ولا فيه حاجة موجودة تحل محله، زى ما تكون عملوك قالب مطبوط، لما جيت تلبسه، لقيت نفسك مافيش، ما فيش محمود يلبس القالب، ما فيش حاجة عملا شكل محمود.
 - ياخير!!! باين كده!
 = لا انت قادر تتنازل عن شكلك، ولا تقدر تتمسك بيه عشان ما هؤاش انت، آدى المشكلة.
 - إيه الحكاية ؟ طب والوسوسة؟
 = أظن هئ تبع الموضوع ده ، تبع الخناقاة بينك وبين شكلك. تبع الرقص عالسلم، عمال بتكرر كل حاجة عشان تفضل مطرحة.
 - بس انا حاسس إن شكلى أوحش.
 = مشم فاهم . كان حلو واتوحش؟ ولا كان وحش وبقي أوحش؟
 - زمان كنت وسيم بس مش دلوقت.
 = ما انت لسه وسيم وانت عارف كده كويس، أمور، ما سمعتش الدكتوراة ()، والدكتوراة () ؟ إسمع، أنا جتلى فكرة : لوتصورنا يا عيني ان فيه محمود جوه، وإنه رافض إلى عملوه فيك، لدرجة إنك بقى الود وذك تبقى شكلك قبيح فعلا، يمكن ما كانشى حاجة من دى حصلت، مش قبيح يعنى وحش قوى، قصدى عادى. يعنى انا تصورت ان من كتر ما ركزوا على شكلك، تمنيت إنك تبقى وحش.
 -أبدا، أنا تمنيت ان ما يكونشى حد أحلى منى.

= ..ياه !! رغم إنك أحلى من كل اللي حواليك؟
- أيوه .

= يبقى شاركت في الحكاية أهه، ولسه بتشارك فيها لحد دلوقتي؟ بدل ما تدور على محمود اللي بيق وحقيق، قمت متمسك بمحمود الأمور إلی هو مش انت، وعايز تبقى أمور أكثر؟ يا خبز!! يبقى الفرض الأولانى اللي انا حطيته طلع غلط، دا انت طلعت شريك أساسى فى اللي حصل.

- أهلى هما أثروا فى، أنا اعنى شكلى يرجع تانى حلو زى الأول عشان أجدب البنات وكده .

= ماهو لسه زى الأول، هو إيه اللي جرى فيه؟ باقولك إيه: هم البنات بيتجذبوا للشكل ولا حاجة تانية؟

- حاجة تانية

= إلی هيه إيه بقى؟!!!؟

- مش عارف. لما يكون الواحد طفل يعنى أقل من اربعتاش سنة بحس إن شكله كويس، ينبسط، لكن لما بيكبر، يبلغ، يبقى عايز شكله يتغير على راجل، عايز البنات يبصوله راجل

= وانت إيه اللي حصل معاك لما كبرت؟

- البنات ما بقوش يبصولى زى زمان، كنت عايز حاجة تانية، أبقى أحلى، شكل تانى، حاجة تملى حاجة ، يعنى...، مش عارف أقول

= تقصد رجولة تملأ الحلاوة

- حاجة زى كده، بس باين عليها ما نفعتش

= إيش عرفك؟

- باين كده،

= إنت مش عايز تسبب أى حاجة. عايز يبقى شكلك حلو، وفى نفس الوقت تبقى أحلى، وتتملا رجولة، والبنات تحبك كراجل، مش عيل حلو وأمور، كل ده مع بعض مرة واحدة .

- يمكن.....

واستمرت المقابلة، وقد نعود إليها، وإلى متابعة الحالة فى يومية لاحقة ما أمكن ذلك..)

قراءة فى بعض ملامح الحالة

ولد محمود فى قرية مصرية، لا تعلب عادة من قيمة جمال الذكور، لكن شكل محمود استرعى انتباه أمه، وأنه ليس مثل إخوته، أو مثل سائر أطفال العائلة أو أطفال البلد، وقد أقر كل من رآه هذه المسألة، وأصبح شكله موضع اهتمام، ومديح، وربما حسد المحيطين جميعا.

يبدو أن هذا التركيز على الشكل قد بولغ فيه حتى أصبح هو كل شيء، فحل - تلقائيا - محل وجود الطفل في ذاته.

توضيح هذه المسألة صعب نسبيا :

أن تستقبل الأم طفلها من خلال صورته الجميلة أساسا، أو تماما، قد يعني أن الأم تستعمله كنوع من التباهي ببضاعة هي التي صنعتها،

وقد يمثل ذلك تعويضا للأمر عن شكلها هي شخصا خاصة إذا كانت تشك في درجة جمالها (كانت أم محمود متوسطة الجمال أو دون ذلك)

أو لعل الأم كانت قد جُرحت في هذه المنطقة، فجاء ابنها الجميل يثبت لها أولا أنها جميلة، ثم "لهم" غضبا عنهم! أليست هي التي أنجبتته؟

في هذه الحالة يصبح الطفل مثل دمية للعرض، أو مثل تحفة للثنين، ما دام تصادف أنه يملك ما يُعرض أو يُؤمن بفخر واعتزاز.

وهو يصبح بذلك مثل أحد المقتنيات البديعة لا أكثر، ربما هذا هو ما جعل محمود يكرر بإصرار أن أهله هم السبب فيما هو فيه،

صحيح أنه كان يشير إلى مسئوليتهم عما هو فيه من مرض وأعراض،

لكن يبدو أنه شخصا فرح بذلك تماما، وهل كان يملك غير ذلك؟

لقد أقر ميررات اعترافهم به (أنه كيان جميل)، فاستزاد منه،

وهو ما زال يريد أن يصبح أحلى وأحلى،

هو قد أصبح بهذا امتدادا لما فعلوه فيه.

لكن كل هذا لم يحقق له شيئا حقيقيا، فشك في قيمة وجدوى حلاوته، حتى شك في استمرار وجود حلاوته: أنه لم يعد حلوا (مثل زمان)، ثم تمدى الشك في أنهم (إخوته بالذات) يريدون أن يجرموه حتى ما تميز به (الجمال الظاهر)، يريدون تقبيحه، أن يكون له كرش... إلخ،

فهم كما رسموه صورة حلوة، يمكنهم أن يفعلوا العكس.

وحيث حلت أزمة المراهقة، صاحبها الرغبة في أن يكون موضع اهتمام البنات في سنه، مثلما كان موضع اهتمام الكبار طفلا جميلا، فانكشف زيف الواجهة.

لم تعد صورته الطفل الجميل كافية لتملؤه، اكتشف أن ثمة نقلة حدثت غيرت الموازين: أصبح يريد أن يكون الشاب الجذاب الممتلئ رجولة،

لكن من أين له ذلك؟

لم تنجذب البنات إليه رجلاً، أو هكذا خيل له، وكأن ذلك كان بمثابة إعلان زيف جماله الطفلي الظاهري،

جماله هذا أصبح قبجا ما دام لا يجذبهن إليه،
لكنه لا يملك غيره،

فليعد طفلاً لدرجة ألا يتحكم في إخراجِه، فهو الجنون الذي
هدم حتى الواجهة،

لم يعد جماله ينفع،

ولا هويستطيع أن يكون أجمل،

ولا هو يريد أن يكون إلا أجمل (خصوصاً بالمقاييس الجديدة)،
وليس وراء الواجهة إلا الفراغ،

الخلاصة

محمود لم يكن موجوداً يوماً، والصورة الجميلة التي أخفته
وراءها لم تعد كما هي في نظره، لا هي كافية، ولا هي نفعته
أصلاً.

فشل الشكل الطفلي أن يحافظ على تبرير وجوده، وفي نفس
الوقت لم يستطع أن يكتسب اعترافاً به كشاب جذاب مطلوب - من
البنات - لأنه أحداً لم يره أبداً غير شكله.

فكان ما كان.

أكتفى بهذه القراءة لأنتقل إلى أغنية كتبها للأطفال؟
الأطفال،

الأغنية

وكتبت هذه الأغنية للأطفال قبل لقائي مع هذه الحالة
بشهور طويلة.

آنا بصيت في مرايتي

شفت نفسي: هي صورتي

إنما رجعت في كلامي:

إلى شفته "مش أنا بدر التمام!"

آنا مين؟ آنا كام؟

إنتو شايقين اللي برّة

بس ده مش كلّي مرّة

أنا لسه ليّا جوة

حتى باين: إني هوّه

"أنهو أحسن؟؟"

أنهو أحسن !!!

آنا أحسن!!
آنا يعنى...، أصلى إتنى...، هؤا انا !!
آنا قصدى،
آنا كللى على بعضى.
باتعمل منك ومنى
بابقى "انا"، "مش غضب عنى"
شفت: انا ما بقيتشى صورتى،
آنا باتكوّن بجزتى.
مش آنا الشخص إالى إنت كنت "فاكره"
مش آنا الشخص إالى إنت كنت ناكره
آنا خلقه ربنا،
حابقى نفسى ليّا انا
حابقى نفسى واحده واحده
زى ما هي مستعده
آنا حابقى نفسى ليكم، يعنى ليّا
آنا حاسم إى أملأ نفسى بيّا،
حاتلاقينى فى رحابته، زى ما هو خلقنا،
غم باخبط عالى بائه: زى ما غيرنا سبقنا

Forum Web Site

<http://fr.groups.yahoo.com/group/TheManAndEvolutionForum/>

Forum Subscription

TheManAndEvolutionForum-subscribe@yahoogroupes.fr

Mail To Forum Participate

TheManAndEvolution-FORUM@arabpsynet.com

FORUM INVITATION

www.arabpsynet.com/Rakhawy/MaEForumInvitation.pdf